نظرية معاجم الحقول الدلالية وإرهاصاتها
في «فقه اللغة وسرِّ العربية» للثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)

أ. محمد خالد الفجر(*)

مقدمة

تُعَدُّ معاجم الحقول الدَّلالية خطوةً مهمةً في طريق تطوير ما يعرف بمعاجم المعاني أو معاجم الموضوعات؛ لأنَّ لها أدوارًا مهمةً في إحكام تنظيم المفردات وفق مفاهيم تجمعها، وبذلك لم تعد الفائدة من هذه المعاجم منحصرةً في تزويد الكاتب بألفاظٍ لمعانٍ تجول في ذهنه، بل صارت تُستعمَل في تعليم اللغات، وتسهِّل عملية الترجمة الآلية، وتسهم في تتبع التغيرات الدلالية التي حملتها الكلمات في مسيرتها التاريخية.

وهذه المعاجم التي يسعى العلماء فيها للوصول إلى أعلى درجات الدِّقة، بإخضاعها لتصنيفاتٍ معتمدةٍ على ما يجدُّ من طرقٍ في مجال الحقول الدَّلالية، تمثيلٌ لغويٌّ للعلاقات المنطقية في الكون، إذ إنها تنسج من الألفاظ شبكاتٍ دلاليةً تربط بعضها ببعض، وتبرز العلاقة بين الألفاظ ودلالتها، ومرجعيتها في

(*) عضو الهيئة الفنية في المجمع.

العالم المحيط بالإنسان.

ويرى الدكتور أحمد عزّوز أن «ترتيب الكلمات في مجموعات يرتبط بفطرة الإنسان، ومن خصائص العقل الإنساني الذي من طبيعته الميل نحو التصنيف والبحث عن العلاقة التي تكوّن أجزاء هذه المجموعة أو تلك، حتى يتسنى لنا فهمها ووضع قوانينها ثم الحكم عليها والاستنتاج» [(١)].

وقد مرّت هذه المعاجم بمراحل منذ بدءِ الإنسان بتجميع الألفاظ في مُصَنَّفاتٍ تُفسِّر له علاقة اللفظ بمدلوله، فمنهم من جعل قدَم السبق للهنود مع (بانيني)، وآخرون يرون أنَّ الصينيين هم من أوائل البادئين بهذا الفن. واستمرت في الظهور والتطور مع تطور الحياة وما يجدُّ فيها من مفاهيم.

لم تكن هذه المعاجم وليدة اللحظة، وإنما وُجدت مع محاولات الإنسان الربط بين اللفظ ودلالته والمرجع الخارجي، وليس القولُ: إنَّ العرب كان لهم إسهامٌ في هذا الفن من فنون التأليف المعجمي -ضربًا من ضروب التعصب أو الادِّعاء المفتقر إلى الدَّليل، بل إنَّه مثبَتٌ بما وصلَنا من نصوصِ ما عُرِف في تراثنا بمعاجم المعاني أو معاجم الموضوعات التي جُمعت وَفق طرقٍ تُقارب إلى حدٍّ بعيد ما يُطلَق عليه في أيامنا بمعاجم الحقول الدلالية، والتي تُعرَّف بأنها: «معاجم تقوم على حقول تضم مفاهيم كلية، تضم في داخلها ما يرتبط بها من مفرداتٍ تدلُّ على مفاهيم فرعية مرتبطة بالمفاهيم الكلية».

(١) د. أحمد عزوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، ص١٣.

ويسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على دور العرب في التمهيد لنظرية الحقول الدَّلالية، مستندًا إلى أثرٍ لغويٍّ يُعدُّ من أهمِّ ما صُنِّف من معاجم موافقةٍ لها. هذا الأثر هو فقه اللغة للثعالبي، وقد وقع الاختيار عليه؛ لأنّه قد وضع إرهاصاتٍ تتفق مع ما جدّ في مجال الحقول الدّلالية.

والغاية من هذا البحث هي:

١- التأريخُ للونٍ من ألوانِ التَّصنيف المعجمي.

٢- إظهارُ ما في تراثنا من إسهاماتٍ علينا أنْ نوظِّفَها في أيامنا بنسجٍ جديد.

٣- كيفية الإفادة من هذا النوع من المعاجم.

أولاً- لمحة تأريخية إلى نظرية الحقول الدلالية

قبل عرض النظريات الدلالية وآراء أصحابها، سأبدأ بتعريف مفهوم الحقل الدلالي، الذي جُعلت المعاجم حاملةً لاسمه.

- **الحقل الدلالي**

من المسلَّم به أن الكلمة لا تحمل دلالة إلا بالسياق الذي يربطها بغيرها من الكلمات، ولهذا فإن أقرب تعريف للحقل الدلالي هو تعريف جورج مونان الذي بيَّن أنه: «مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهومٍ عامٍّ يُحدد الحقل»[٢] فهو أبسط تعريف جامع لمعنى الحقل الدلالي،

(٢) د. أحمد عزوز، أصول تراثية، ص ١٣.

فكلمة شجرة مفهوم عام تندرج تحته أشجار البرتقال، والتفاح واللوز، والمشمش...إلخ، هذه الألفاظ تمثِّل وحدات معجمية حاملة لمفاهيم معينة تتفق ومفهوم الوحدة المعجمية الشجرة، ومن مجموع الوحدات المعجمية ومفاهيمها يتكون حقل دلالي مستقل. فهو قِطاعٌ دلاليٌّ مترابط، يتألف من مفردات اللغة التي تعبر عن تصورٍ أو رؤيةٍ أو موضوعٍ أو فكرةٍ معينة، فالكلمات المكونة للحقل الدلالي ترتبط بموضوع معين وتعبر عنه(٣). فنفهم معنى الكلمة من علاقتها بالكلمات الأخرى، داخل الحقل الدلالي، فالحقل الدلالي هو الذي يحصر العلاقات بين الكلمات حتى يفهم معناها وعلاقتها بالمفهوم العام.

نظرية الحقول الدلالية

إنَّ تطور العلوم واتساع إدراك الإنسان، وكثرة المفاهيم التي تتوالد يوميًّا دفعت بالإنسان، المهتم بالمعبِّر الأساسي عنه، وهو اللغة إلى ابتداع طرقٍ كثيرةٍ محاولًا عن طريقها توظيف اللغة في التعبير عن علومه وإدراكاته، ثم عمد إلى تجميع مفرداتها وَفق طرقٍ تساعد على سرعة الوصول إلى معنى الكلمات. من هذه الطرق ربطُ الكلمات والألفاظ بمعنًى عام يمثل العنوان الأكبر لمجموعةٍ من العناوين الأصغر فالأصغر، ولم تتوقف حتى أيامنا الدراسات والبحوث المتناولة لهذا الفن، فتعددت الأقوال والآراء وأُوجِدت نظرياتٌ عدة؛ لأنّ النظريات تتغير بحسب المجال الذي تُستعمل فيه، وهذا التغير طبيعيٌّ؛ لأنَّ

(٣) السابق، ص ١٢.

الدَّلالـة لا يمكـن أن تتمحـور حـولَ مفهـومٍ ثابـت، بـل هـي عرضـةٌ للتوسـيع والتـضييق، وهـذا التغـير يـؤدي إلى ولادة آراء ونظريـاتٍ جديـدةٍ تحـاول حـصر الموضوعات المنثورة في الكون. إذ إنَّ الغاية الأساسية من نظرية الحقول الدلالية، توزيع الكلمات وفق علاقات تشابكية تعين الباحـث عـلى تعيـين دلالاتهـا وعـدمِ الخلط بين المعاني.

ولا يمكن لأحدٍ أنْ يبتَّ في اسم المخترع الأول لنظريـة الحقـول الدلاليـة؛ ولهـذا فـإنَّ القـول: إنَّ (دي سوسـير) هـو مـن أوائـل المنظـرين لموضـوع الحقـول الدلاليـة، لايُسلّم به على إطلاقه؛ لأنَّ قوله: إنَّ الدليل اللساني يخضع لنوعين من العلاقات:

١ – علاقة مبنية على معاييرَ صوريةٍ مثل: كلمة (تعليم) فهي توحي بكلـماتٍ أخرى مُشتقة منها، وتنتمي إلى نفسِ المجال الدَّلالي مثل: علم، نعلم.

٢ – علاقة مبنية على المعـايير الدلاليـة فكلمـة تعلـيم تـوحي بكلـماتٍ أخـرى مثل: تربية، تعلُّم، تكوين.

إنَّ العلاقات السابقة لا تُعدُّ مصداقًا لقولِ القائل: «بذلك وضـع (سوسـير) الإطـار العـام الـذي يمكـن أن تُـدرس فيـه الأدلـةُ اللغويـة»(٤) ؛ لأنَّ مـا قالـه (سوسير)، لا يُعد إلا توصـيفًا لما كـان قبلـه مـن أعـمال ولـيس إبـداعًا لم يكـن لـه ظهور، خصوصًا أنَّ علم التصنيف الـذي ظهـر عنـد اليونـانيين وقبلـه عنـد أهـل الرافدين قام على مثل هذه العلاقات، وإن لم يكن بالدقة التي أرادهـا (سوسـير)،

(٤) منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص ٧٦.

وكذلك ما قام به (بانيني) من تصنيف للكلمات يتحقق فيه شيءٌ مما ذكره ، وتطور الأمر عند العرب المسلمين؛ إذ إنهم فطنوا إلى النوع الأول الذي ذكره سوسير وأطلقَ عليه مصطلح العلاقة الصورية، وسمّوه مصطلح الاشتقاق الصغير الذي يقوم على أن تتغير صورة الجذر لكنه يلتقي مع الصور التي تخرج عنه بالدوران حول نواة المعنى الأساسي له.

لكنَّ النقلة النوعية في قضية الحقول الدَّلالية تحققت على يد العالم الألماني (ترير) (Trier) الذي صبَّ جهده على مفرداتِ اللغة الألمانية الخاصة بالمعرفة في القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر، وقد جعل المرحلتين موزعتين على حقلين، فوضع في حقل المرحلة الأولى الصفات الجيدة، والصفات غير الجيدة، وفي حقل المرحلة الثانية جمع الكلمات المرتبطة بالخبرة الدينية، والمعرفة، والفن[٥]، لكنه لم يستعمل مصطلح الحقول الدلالية، وإنما استعمل بدلاً منه مصطلحات: الحقل المعجمي، الحقل المفهومي، الدائرة المفهومية...، ورأى بعض الباحثين أن سطور(A. Stor) هو أول من استعمل هذا المصطلح[٦].

وقد تعددت أسماء الحقول العامة، بحسب العالم المُنظِّر لها، فأولمان (Ullmann) مثلاً قسمها إلى ثلاثة أنواع:

---

(٥) بالمر، علم الدلالة، ترجمة، محمد عبد الحليم الماشطة،جامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٥، ص ٧٨.

(٦) د. أحمد عزوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، ص ١١.

«١- الحقول المحسوسة المتصلة: ويمثلها نظام الألوان في اللغات، فمجموعة الألوان امتدادٌ متصل يمكن تقسيمه بطرقٍ مختلفة.

٢- الحقول المحسوسة ذات العناصر المنفصلة: ويمثلها نظام العلاقات الأسرية، وهي أيضًا يمكن أن تصنَّف وفق معايير مختلفة.

٣- الحقول التجريدية: ويمثلها ألفاظ الخصائص الفكرية، وهذا النوع من الحقول يُعد أهمَّ من الحقلين المحسوسين، نظرًا للأهمية الأساسية للغة في تكوين التصورات التجريدية»(٧).

فنظرية الحقول الدلالية تقوم على تجميع كلِّ مفاهيم الكون، أو بعضها وفق حقول تمثلها كلماتٌ مركزية، وتتفرع عنها كلمات تتحد معها بالمفهوم العام، ويعتمد فيها على علاقاتٍ يمكن استنادًا إليها بناء عناوين الحقول وما يندرج ضمنها من كلمات.

والمعجم المصنف وفق الحقول الدلالية، لابد أن تتوفر فيه تلك الأسس السابقة، لأنه يمثل تجميعًا لمفاهيم عامة، تربط كلمات تنتمي إلى مقولات كلية، حتى يستطيع القارئ فهم الكلمات اعتمادًا على علائقها بعضها ببعض.

وقد أبدى الأوربيون اهتمامًا بهذا النوع من المعاجم في القرن التاسع عشر، فظهر معجم روجيه (Roget) للغة الإنكليزية، ثم معجم دورنزايف (Dornsief)

(٧) د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ١٠٧.

للغة الألمانية[٨].

ما سبق عرضٌ مختصر لمراحل نظرية الحقول الدّلالية في الغرب، أما بذور هذه النظرية عند العرب، فإنها تبدأ مع الرسائل اللغوية التي كانت تجمع مفردات موجودٍ من الموجودات، مثل: رسائل الخيل، ورسائل النبات...إلخ. لكن أول المعاجم الجامعة في هذا الفن كان الغريب المصنف للقاسم بن سلام (تـ ٢٢٤هـ)، الذي يُعد جامعًا لِما دُوِّن من رسائل لغوية سبقته في الظهور ورسائل الأصمعي خاصةً[٩]. وممن سار على نهجه في تصنيف هذا النوع من المعاجم، عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (تـ ٣٢٠هـ) في الألفاظ الكتابية، وأبو عبد الله الخطيب الإسكافي (تـ ٤٢١هـ) في مبادئ اللغة، وأبو منصور الثعالبي (تـ ٤٢٩هـ)[١٠] في فقه اللغة...إلخ.

(٨) د. محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، ص ٦٦.

(٩) د. حسين نصَّار، معاجم على الموضوعات، ص ٢١.

(١٠) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠هـ - ٤٢٩هـ)، من علماء اللغة المشهورين، لقب بالثعالبي نسبة إلى مهنة كان يمتهنها وهي خياطة جلود الثعالب، صنّف في فنون اللغة كتبًا عدة منها: يتيمة الدهر، وفقه اللغة وسر العربية. وسحر البلاغة، وله مؤلفات غيرها، من ذلك: طبقات الملوك، ومكارم الأخلاق. ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٣/ ص ٣٨١، و عمر رضا كحّالة، معجم المؤلفين، ج٢/ ص ٣٢١، والزّركلي، الأعلام، ج٤/ ص ١٦٣-١٦٤.

– فقه اللغة للثعالبي

جعل الثعالبي فقه اللغة موزعًا على قسمين: القسم الأول عَنْونه بـــ (فقه اللغة)، والثاني بـــ(سر العربية)، وهذا القسم لم يكن متفقًا مع تصنيف المعاجم المصنفة وفق الحقول الدلالية؛ إذ إنه عرض فيه أساليب العرب في أقوالهم، وتنوع هذه الأساليب، وتحدث عن معاني الحروف، فهو قسمٌ لغوي بحث فيه في طرق العرب في كلامها، أما القسم الأول فإنه يعد معجمًا مستقلًّا مكمِّلًا لما سبقه من معاجم المعاني. وبسبب هذا الاختلاف بين القسمين ظنّ بعض النّاشرين أن كلّ قسم كتابٌ مستقل، إلا أنّ ما ينفي ذلك ذكر المؤلف نفسه للقسمين في مقدمته(١١).

ذكر الثَّعالبي في مقدمته أنَّه صنَّف هذا المعجم ليجمع فيه نُكتًا لغوية كانت تُثار مفكّكة في مجالس الأمير، وأشار إلى أنه استند في هذا إلى أهمّ اللغويين والأدباء الذين صنَّفُوا في المعاجم وفي فقه اللغة، فقال: «تُرِكْتُ والأدب والكتب أنتقي منها وأنتخبُ وأفَصِّل وأبَوِّب وأقَسِّم وأرَتب وأَنْتَجع من الأئمة مثل الخليل والأصمعي وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفرَّاء وأبي زيد وأبي عبيدة وأبي عبيد وابن الأعرابي والنضر بن شميل وأبي العبّاس وابن دريد ونِفطَويه وابن خالَوَيه والخارَزَنجي والأزهري ومِن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين

(١١) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص ١٨، و تصدير الدكتور رمضان عبد التوّاب للكتاب ص ٥.

جمعوا فصاحةَ البلغاء إلى إتقان العلماء، ووعورةَ اللغة إلى سهولة البلاغة كالصاحب أبي القاسم وحمزة بن الحسن الأصبهاني وأبي الفتح المراغِي وأبي بكر الخوارزمي والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني وأبي الحسين أحمد ابن فارس بن زكريا القَزويني»[١٢] .

يُظهر النَّص السابق أنَّ الثَّعالبي جمع نصوصه من أهمِّ مصادر اللغة، لكنّه لم ينصّ على المنهجية الجديدة التي اتبعها في تصنيف مواد معجمه، مع أنَّه أطنب في مدح الأمير وذكر أياديه عليه. وأشار إلى مصادره، ولكنَّه اختصر في تعداد فضائل كتابه، وما امتاز به عما سبقه، فهل يرجع ذلك إلى أنّه ما وجد في كتابه جديدًا سوى تجميع أقوال سابقيه؟ أم أنَّه ترك للقارئ الحكم على إنتاجه؟

إنَّ مقدمته تخلو من الوقوف على التعريف بهذا النوع من التَّصنيف المعجمي، أو ذكر الفائدة منه، عدا سطر لا يفي بالغرض وإنما يُعد ومضةً سريعةً لا تفي بما في كتابه من جِدَّة في العرض والترتيب. وذلك قوله: «وأجمع في التآليف بين أبكار الأبواب والأوضاع وعيون اللغات والألفاظ»[١٣] . فقوله: أبكار الأبواب يشي بطريقة ترتيبه التي جعلها سائرةً على الموضوع العام الذي يمثِّله الباب. مع أنّ صاحب معجمٍ مماثل لمعجم الثعالبي، وهو ابن سيده

(١٢) الثعالبي، فقه اللغة،ج١/ ص١١٧.

(١٣) السابق،ج١/ ص ١٦.

(تـ ٤٥٨ هـ) نراه في مقدمته يفصح عن الغاية من تصنيف معجمه بقوله: «أحببت أن أجرِّد فيها كتاباً يجمع ما تنشَّر من أجزائها شعاعاً وتنثَّر من أشلائها حتى قارب العدم ضياعاً ولاسيما هذه اللغة المكرمة الرفيعة المحكمة البديعة[١٤] ، ويقول في موضعٍ آخر من مقدمته: «فاشرَأَبَّت نفسي عند ذلك إلى أن أجمع كتاباً مشتملاً على جميع ما سقط إلي من اللغة إلا ما لا بال به، وأن أضع على كلمة قابلة للنظر تعليلها وأحكم في ذلك تفريعها وتأصيلها وإن لم تكن الكلمة قابلةً لذلك وضعتُها على ما وَضَعُوه وتركتها على ما ودعوه»[١٥] .

فعدم شرح الثعالبي لأسلوبه ومنهجه، والفائدة من كتابه، فوّت على قارئيه خيرًا كثيرًا أهمه: التعرُّف بالعقلية التي اعتمدت مثل هذا النوع من التصنيف؛ لأنه لو أفصح عن سبب اختيار عناوين أبوابه وفصوله، لأدركنا المرحلة التي وصلت إليها عقلية العرب في مجال الحقول الدلالية.

إرهاصات الحقول الدلالية في فقه اللغة

لكن مع ما سبق من خلوِّ مقدمته من الحديث عن منهجه في الكتاب، فإنَّ عرضه للعناوين التي ضمّنها معجمه يمثِّل طريقة ترتيبه لمعجمه، وهي هنا تمثل أوَّل أسس المعجم القائم على الحقول الدلالية؛ لأنه كما عُرض في الحديث عن الحقول الدلالية، فإنّ تحديد العلاقات التي ستمثل في مثل هذا النوع من المعاجم

(١٤) ابن سيده، المخصص، ج١/ ص٧.

(١٥) السابق، ج١/ ص ٨.

هي أولى خطوات تصنيفه، فقد أدرك الثعالبي قضية عناوين الحقول، التي أراد أن تحتوي مفردات مرتبطة بالمعنى العام للحقل، ويمكننا القول: إن هذا التوزيع للأبواب يعد الإرهاص الأول من إرهاصات الحقول الدلالية، وسأقتصر على ذكر عدد من الأبواب للتمثيل على طريقته:

«الباب الأول: في الكلِّيات وفيه أربعة عشر فصلًا .

الباب الثاني: في التنزيل والتمثيل وفيه خمسة فصول.

الباب الثالث: في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها وفيه ثلاثة فصول.

الباب الرابع: في أوائل الأشياء وأواخرها وفيه ثلاثة فصول.

الباب الخامس: في صغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها وفيه عشرة فصول.

الباب السادس: في الطول والقِصر وفيه أربعة فصول.

الباب السابع: في اليبس واللين والرطوبة وفيه أربعة فصول »[١٦] .

الأبواب السابقة، هي تشكِّل عناوين الحقول، وتبعها عناوين فرعية بدأها بكلمة فصل، فالباب الأول الذي وسمه بـ (في الكليات) نرى أنه يتوزع على فصول متنوعة. بدأها بفصل ماورد في القرآن من ألفاظ مرتبطة بلفظ كل. ثم تلاه فصل (في ذكر ضروبٍ من الحيوان) فالرابط بين صنع الثعالبي وما تنص

(١٦) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص١٩-٢١.

عليه الحقول الدلالية هو تحديد الكلمة الأساسية، وهذا ما تحقق في أكثر الكلمات التي وردت في أبوابه، فالسماء كلمة أساسية تطلق على كل ما علا الإنسان.والرابط الآخر هو ذكره لعناوين الحقول الفرعية حيث نراه ينوع فيها بين ذكر الجمادات والأحياء،وكذلك ما يتعلق بالحيوانات والإنسان، إلا أنَّ التفكك الذي حصل هو أنه ينتقل من الحيوان إلى الأشياء وبالعكس، فهو لم يجعل التوزيع بحسب الشيء المتحدَّث عنه؛ ولذلك نرى (فصل في ذكر ضروبٍ من الحيوان)[١٧]، ثم (فصل في النبات والشجر)[١٨]، ثم يأتي بفصلٍ يطلق عليه (عن أبي بكر الخوارزمي، عن ابن خالويه)، ثم فصل عن (الأفعال) التي تتفق مع عنوان الباب (الكليات).

فحشرُ عنوانٍ باسم عالمين غير متّفقٍ مع تسلسل باقي العناوين، التي حاول فيها أن تكون مرتبطة بمفهوم الباب، وكذلك بتنوع الموجودات في الكون، ونراه في معظم الأبواب يحشر أسماء علماء يحيل عليهم في ذكر كلمات وردت عندهم مرتبطةً بعنوان الباب الذي يجمع مفرداته ضمن فصول، فيخصّص لهم فصولًا ضمن الباب كما في المثال السابق. مع أننا نرى أنه في الفصول حاول أن تكون مفرداتها مرتبطةً بـــ:

١ - الجمادات -٢- الحيوانات -٣- النبات.

(١٧) السابق، ج١/ ص ٢٥.

(١٨) السابق، ج١/ ص ٢٦.

وهذا ما يعد متفقًا مع توزيع الحقول الدلالية في أيامنا.

ونرى في عناوين أبوابه بابًا خاصًّا بالأشياء وسمه بـــ: (في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها)[١٩] فيبدؤه بقوله: «لا يُقالُ كأسٌ إلاّ إذا كان فيها شَرَاب وإلا فهي زُجَاجة، ولا يُقَالُ مائدةٌ إلاّ إذا كان عليها طَعَامٌ و إلاّ فهي خِوَان، لا يُقالُ كُوزٌ إلا إذا كانَتْ له عُرْوَة وإلا فهو كُوب، لا يُقالُ قلَمٌ إلاّ إذا كانَ مبريًّا وإلاّ فهو أُنْبوبَة»[٢٠].

نلاحظ أن الكلمات كلَّها تنتمي إلى حقل الجمادات، لكنَّ الذي أخلَّ بتسلسلها المنطقي عدم توزيعها وفق المجال الذي يضمها كلها، أي لم يجعل الأشياء المرتبطة بالطعام متتابعة، ولا الأشياء المرتبطة بالطرق، أو الأشياء المرتبطة بأدوات الحرب مضمومًا بعضها إلى بعض، وإنما رأينا أنه يفصل بين الكلمات المترابطة، بذكر أسماء العلماء الذين اعتمد عليهم في استقاء كلماتٍ مرتّبَةٍ بالباب أو بالفصل، بل إنه في بعض المواضع يبدأ الباب بما روي عن أحد العلماء كما في الباب الذي وسمه بـــ: «فيما روي عن الأئمة وأبي عبيدة»[٢١]، ثم أتبعه بفصل «في احتذاء سائر الأئمة تمثيل أبي عبيدة من هذا الفن»[٢٢]. ففي الفصل

(١٩) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص ٤٤.

(٢٠) السابق، ج١/ ص٤٤.

(٢١) السابق، ج١/ ص ٤٤.

(٢٢) السابق، ج١/ ص ٤٥.

الأول يتحدث عن الكأس وهو من أدوات الطعام، ثم نراه يتحدث في الفصل الثالث من هذا الباب عن الطبق، قائلاً: «لا يُقال للطبق مِهْدى: إلا ما دامت عليه الهدية»[٢٣].

إنَّ الأمثلة السابقة تعدُّ شاهدًا على أنَّ صاحب فقه اللغة سار على منهجٍ قائم على علاقات دلالية بين الألفاظ، إلا أنَّ هذا المنهج الذي ذكره لم يكن منطقيًّا في كثيرٍ من المواضع، وهذا ما عيب على معظم معاجم الحقول الدلالية العربية التراثية[٢٤]. ولكنْ لا يعني هذا اختفاءَ كلِّ مظاهر الحقول الدلالية في هذا المعجم، ويبدو أنَّ السبب في عدم منطقية تجميع الكلمات أنَّ الثعالبي لم تكن أبواب معجمه معنونَةً بعناوين تتعلق بالموجودات، وإنما كانت ألفاظًا تُستعمل في التعبير عن الموجودات في الكون، وهذا أدى إلى اختلاط بين الجمادات والحيوانات والنباتات. فلو أنَّ هذه الألفاظ وُضعت ضمن حقول المفاهيم العامة أي {باب الكليات يصبح فرعًا من باب الجمادات وهكذا باقي الأبواب}، لكان ذلك محققًا لعلاقات منطقيةٍ دقيقةٍ بين ألفاظ هذا المعجم. ويبدو أن علَّة ذلك هي أنَّ اللفظ في هذه المعاجم غُلِّب على المعنى.

العلاقات بين الكلمات

تبيَّن مما سبق أنَّ الحقول الدلالية لم تستقرَّ على حال واحدة، وإنما تبدلت

(٢٣) السابق، ج١/ ص ٤٦.

(٢٤) د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ١١٠.

وتغيرت بحسب الموضوع الذي احتوته، لكنَّ الشيء المشترك بين كلِّ أنواع الحقول الدلالية أنها تقوم على علاقات بين الكلمات المحتواة في الحقل الدلالي.

وسأحاول أن أتتبع ظهور هذه العلاقات الدلالية عند الثعالبي واتفاقها مع ما أُحكم عرضه في زمننا المعاصر.

من أهمِّ العلاقات التي ما زالت متبعَةً في تجميع الألفاظ وتصنيفها ضمن الحقول الدلالية الترادف، والتضمن(الاشتمال)، التضاد، التنافر. هذه العلاقات يرى الدكتور أحمد مختار عمر أنها لا يمكن الخروج عنها في أي حقلٍ معجمي(٢٥).

١- الترادف

يمثِّل الترادف إحدى العلاقات التي تجمع الكلمات تحت مفهوم واحد في الحقل الدلالي، ويتحقق الترادف في الحقل الدلالي حين يوجد تضمنٌ من الجانبين... كما في كلمة أم ووالدة(٢٦).

تحدَّث اللغويون العرب عن التَّرادف منذ بدايات التَّدوين، فقد ورد ذكره عند سيبويه الذي أطلق عليه مصطلح: (اختلاف اللفظين والمعنى واحد)(٢٧) .

ورد الترادف في فقه اللغة في أكثرَ من موضع، من ذلك ما ذكره في فصل ترتيب مراتب السرور، فعدَّد المرادفات الآتية: «الجَذَل، ثم الاستبشار، ثم

(٢٥) السابق، ص ٩٨.

(٢٦) السابق، ص ٦٨.

(٢٧) سيبويه، الكتاب، ج١/ ص٢٤. حيث ذكر مثالاً عليه وهو قوله: «ذهب وانطلق».

الاهتزاز، ثم الارتياح... ثم الفرح، ثمّ المرح»[٢٨].

ومن ذلك مترادفات لفظة السيف، قال الثعالبي:

«إذا كَانَ السَّيْفُ عَرِيضاً فَهُوَ صَفِيحَةٌ، فإذا كَانَ لَطِيفاً فَهُوَ قَضِيب، فإذا كَانَ صَقِيلاً فَهُوَ خَشِيب (وهُوَ أيْضاً الّذي بُدِئَ طَبْعُهُ ولم يُحكَمْ عَمَلُهُ)، فَإذا كَانَ رَقِيقاً فَهُوَ مَهْو، فإذا كَانَ فِيه خُزُوز مُطْمَئنَّة عنَ مَتْنِهِ فَهُوَ مُفَقَّر (ومِنْهُ سُمِّيَ ذو الفَقار)، فإذا كَانَ قَطَّاعاً فَهُوَ مِقْصَل ومِخْضَل ومِخْذَم وجرَاز وعَضْب وحسام وقَاضِبٌ و هُذَامٌ، فإذا كَانَ يَمُرُّ في العِظَام فَهُوَ مُصَمِّمٌ...إلخ»[٢٩].

٢- التضمُّن أو الاشتمال

يتحقق الاشتمال بأن يكون طرفٌ يضمُّ طرفًا آخر، بحيث يكون اللفظ المتضمِّن أعلى من اللفظ المتضمَّن كما في لفظ فرس فإنه ينتمي إلى لفظ حيوان[٣٠].

لم تظهر هذه العلاقة في حقل مستقل من حقول فقه اللغة، واكتفى الثعالبي بذكر كلماتٍ معدودة تنتمي إلى معنى أعم يشملها، وهذا ما ظهر في أسنان الرجال والنساء، ففي فصل ترتيب سن المرأة يذكر الثعالبي الكلمات الآتية:

«هِيَ طِفْلَة مَا دَامَتْ صَغِيرَةً، ثُمَّ وَلِيدَةٌ إِذَا تَحَرَّكَتْ، ثُمَّ كَاعِب إذا كَعَبَ

(٢٨) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص ٢٩٥.

(٢٩) السابق، ج٢/ ص ٤٢٤.

(٣٠) د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٦٩.

ثَدْيُهَا، ثُمَّ نَاهد إذا زَادَ، ثُـمَّ مُعْصِر إذا أَدْرَكَـتْ، ثُـمَّ عَـانِس إذا ارْتَفَعَـتْ عَـنْ حَـدِّ الإعْـصَارِ، ثُـمَّ خَـوْد إذا تَوَسَّـطَتِ الـشَّبَابَ»[٣١] ، فـالكلمات الـسابقة الدَّالـة عـلى المراحل العمرية كلها تنتمي إلى كلمة أعلى هي المرأة.

ومن ذلك أيضًا «فصل في جماعات الضَّأن والمعز، إذا كَانَـتِ الـضَّأنُ مَـا بَـيْنَ العَشرِ إلى الأرْبَعِينَ فَهِيَ الفِزْرُ، والصُّبَةُ مِنَ المَعْز مِثْلُ ذَلِـكَ، فـإذا بَلَغَـتِ الثَلاَثِـينَ فَهِيَ الأَمْعُوزُ، فإذا بَلَغَتِ الضَّأنُ مئةً فَهِيَ القَوْطُ»[٣٢] .

فالفِزر والصُّبة والقَوْط كلماتٌ ترتبط مع الضَّأن والماعز بعلاقة اشتمال، لأنَّ الضَّأن تشتمل على الفِزر.

٣- التضاد

توزعت علاقة التضاد في حقول فقه اللغة، فكان يذكر المتعاكسين ضمن حقل من الحقول التي لم تعنون بعناوين مرتبطة بالتضاد، إلا أنَّه بعد ذكره لكلمات مرتبطةٍ بفصل من الفصول (مفهومٍ من المفاهيم) يذكر ضدَّ كلمة من الكلمات كما في الأمثلة الآتية:

العَدُوُّ ضِدُّ الصَّدِيقِ.

التَرَح ضِدُّ الفَرَح.

والعدل: القيمة والرَّجل الصالح والحقُّ: وضِدُّ الجَور.

(٣١) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص ١٤٠.

(٣٢) السابق، ج٢/ ص ٣٧٦.

إلا أنه تحدث عن التضاد، وكيفية صنعه في اللغة بوساطة حرف من حروفها، وخصه بفصل مستقل وسمه بـــ: «فصل في الفرق بين ضدَّين بحرف أو حركة». وقال: «ذلك من سنن العرب كقولهم: دَوِيَ: من الدَّاء وتَداوى: من الدواء. وأَخْفَرَ: إذا أجارَ، وخَفَرَ: إذا نقض العهد. وقَسَط: إذا جار، وأقسَطَ: إذا عدل. وأقْذى عينه: إذا ألقى فيها القذى وقذاها: إذا نزع عنها القذى .

وما كان فرقه بحركة كما يقال: «رجُلٌ لُعَنَةٌ: إذا كان كثير اللَّعن ولُعْنَة: إذا كان يُلْعَن وكذلك ضُحَكة وضُحْكة»(٣٣) .

ومما يدرج ضمن علاقة التضاد، ما يُعرف في علم البديع بالطباق، فقد أفرد له الثعالبي فصلًا مستقلًّا معنونًا به:**فصل في الطِّباق**، وقد وُجدت علاقة الطباق في القسم الثاني من الكتاب وهو سر العربية، مع أنه ينتمي إلى الحقول الدلالية التي وردت في فقه اللغة، إلا أن الثعالبي، أدرجه في مباحث القسم الثاني قائلاً: «والجمع بين ضدين كما قال تعالى: ﴿ فَلِيَضْحَكوا قَليلاً وَلِيَبْكوا كَثيراً ﴾ [التوبة/ ٨٢] وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ تَحْسَبُهُم جَميعاً وقُلوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحَشْر/ ١٤] وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وتَحْسَبُهُمْ أيقاظاً وهم رُقودٌ﴾ [الكهف/ ١٨] وكما قال عزَّ من قائل: ﴿ولَكُم في القِصاصِ حَياةٌ ﴾ **[البقرة/١٧٩]**.

ومما جاء في الخبر عن سيِّد البشر ﷺ: (حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمكارِهِ والنَّارُ بِالشَّهوات) (النَّاسُ نِيام فإذا ماتوا انتبَهوا) (كفى بالسَّلامَة داءً) (إنَّ اللهَ يُبْغِضُ

(٣٣) الثعالبي، فقه اللغة، ج٢/ ٦٥٩.

البَخيلَ في حَياتِهِ والسَّخيَّ بَعْدَ موته[٣٤]) (جُبِلَت القُلوبُ على حُبِّ من أحْسَنَ إلَيها وبُغْضِ من أساءَ إلَيها) (احذَروا من لا يُرْجى خَيْرُهُ ولا يؤْمَنُ شَرُّهُ) »[٣٥] .

المتلازمات اللفظية:

ومن الأمور التي امتاز بها الثعالبي، أنه خصَّ المتلازمات اللفظية بفصول مستقلة، وأطلق عليها مصطلح ما يناسبه، والمتلازمات اللفظيَّة هي: «تجمعات معجمية لكلمتين أو أكثر ترِد عادةً بعضها مع بعض...إلخ»[٣٦] ومن الأمثلة عليها ضبابٌ كثيف، ، فهي تركيباتٌ قائمةٌ على تناسبٍ بين لفظين قد يكون أحدُهما فعلاً والثاني حرفًا وقد يكون الأول فعلًا والثاني اسمًا، وقد يتكون التلازم اللفظي من اسمين.

فطِن الثعالبي إلى هذه العلاقة، فجعل لها فصولًا احتوت عددًا من هذه المتلازمات.

وتظهر المتلازمات اللفظية بعدة أشكال: اسم + اسم، فعل + اسم، فعل+ حرف+ اسم.

وللتلازم الاسمي علاقات: كالوصف، والإضافة:

---

(٣٤) لأنه يضطر لترك المال لورثته، فهذا ليس كرما منه.

(٣٥) السابق، ج٢/ ص ٦٦٩.

(٣٦) د.محمد حلمي هليّل، «الأسس النّظرية لوضع معجمٍ للمتلازمات اللفظية العربية»، ص ٢٢٨.

فمن الأمثلة على المتلازمات اللفظية القائمة على العلاقة الوصفية:

«مَالٌ لُبَد، ماءٌ غَدَقٌ، جَيْش لَجِب، مَطَر عُبَاب، فَاكِهَة كَثِيرَةٌ»(٣٧) .

ومن الأمثلة على العلاقة التلازمية القائمة على الإضافة:

«نُقَاوَةُ الطَّعَامِ، صَفْوَةُ الشَّرَابِ، خُلاصَةُ السَّمْنِ، لُبَابُ البُرِّ»(٣٨) .

ومن الأمثلة عليه «فصل في تفصيل الإشارات: أشار بيده، أومأ برأسه، غمز بحاجبه، رمَز بشفتيه، لمع بثوبه، ألاح بكمه»(٣٩) .

الخاتمة

أهمية استثمار فقه اللغة وباقي معاجم الموضوعات

إنّ أهم شيءٍ قدمته معاجم الموضوعات التراثية هو أنها تُعد الممهد الأول لما يسمى اليوم بنظرية الحقول الدلالية (Semantic fields) وكما يقول الدكتور أحمد مختار عمر: «هي من الأعمال المبكرة عند العرب في هذا العلم»(٤٠) .

وفقه اللغة للثعالبي يندرج ضمن سلسلة تلك الأعمال التراثية التي مهّدت لنظرية الحقول الدَّلالية، ويُعد منجمًا لمن يريد استثماره لغويًّا وَفق ما جَدَّ من نظريات في مجال المعجمية المصنفة وفق الحقول الدلالية. وتبين مما سبق أنّ فقه

(٣٧) السابق، ج١/ ص ٧٧.

(٣٨) السابق، ج١/ ص ٨٧.

(٣٩) الثعالبي، فقه اللغة، ج١/ ص٣٠٢-٣٠٣.

(٤٠) د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص٢٠.

اللغة وسر العربية، ظهر فيه كثيرٌ من ملامح نظرية الحقول الدلالية، بدأها بتعيين أسماء الحقول، ثم بدأ الحقول الدلالية بكلمات أساسية، وأهم هذه الملامح العلاقات الدلالية التي أحكمت العلاقات بين الموضوع العام للحقل، والكلمات المرتبطة به.

ولم يكن محصورًا بمجال معجمي بعينه، فلم يقتصر على الإنسان وما يرتبط به، ولا على الجمادات، وإنما جمع كلَّ ذلك إضافةً إلى جمعه لعلاقةٍ لغوية تُضاف إلى العلاقات التي تُتبع في الحقول الدلالية (الترادف، التضمن، التضاد...إلخ) وهي: علاقة التلازم اللفظي التي اصطلَح على تسميتها بـ:(ما يناسبه) هذا المصطلح مساوٍ في كثيرٍ من الأمثلة لما يُطلق عليه في الدراسات اللغوية المعاصرة (المتلازمات اللفظية)، التي تفتقر العربية إلى معجمٍ جامع لكلِّ مظاهرها، مع أنَّ لها دورًا مهمًّا في تدريب الكاتب، وتعليم غير الناطقين بالعربية.

فحبذا لو توَّفرتِ الجهود على إعادة هيكلة هذا المعجم، وذلك بجعله مصنفًا وفق حقولٍ عامة تتعلق بالبشر، والحيوانات، والنباتات، والجمادات، ثم وضع عناوين فرعية ضمن تلك العناوين الأربعة، بحيث تجمَعُ هذه العناوين الفرعية كلَّ المفاهيم التي ذكرها الثعالبي، لنصل إلى ترابط الكلمات مع مفاهيمها، وإزالة هذا التفكك المسيطر على حقول فقه اللغة للثعالبي. فمثلاً نبدأ بالحقل الأول الإنسان ثمَّ نفرِّع منه حقولًا جزئية متصلة بخَلْقِه، وهذا يتفرع منه أجزاء جسمه، ثم نضع حقلاً مرتبطًا بمشاعره وأحاسيسه، وتقوم هذه الحقول على العلاقات

المعروفة في الحقول الدلالية مثل الترادف والتضاد والتضمن...إلخ .

إنجاز عمل على هذا النحو يُعدّ خدمةً للعربية ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، فهو إحياءٌ لتراثٍ، وتواصلٌ مع الحاضر بما فيه من نظرياتٍ جديدةٍ في مجال الحقول الدلالية، وكذلك تهيئةٌ له للاستثمار في أعمال مستقبليةٍ قد تعيد تصنيف معاجم المعاني التراثية وَفق نظرية الحقول الدلالية المعاصرة، وبذلك تُهيَّأ لنا ثروةٌ لغويةٌ يفيد منها المعجم التاريخي، والترجمة الآلية، وتعليم العربية لغير الناطقين بها.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

- **فقه اللغة وسر العربية**، الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، تحقيق د. خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

ثانيًا – المراجع

- **أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية**، د. أحمد عزوز، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م.
- **علم الدلالة**، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨م.
- **علم الدلالة**، بالمر، ترجمة، محمد عبد الحليم الماشطة،جامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٥.
- **معاجم على الموضوعات**، د. حسين نصَّار، الكويت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٥م.
- **وفيات الأعيان**، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق

د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

- **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خير الدين الزّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- **الكتاب**، سيبويه، عمرو بن عثمان، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **المخصص**، ابن سيده، علي بن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، السيوطي، جلال الدين، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار التراث، القاهرة، د.ت.
- **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، عمر رضا كحّالة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- «**الأسس النّظرية لوضع معجمٍ للمتلازمات اللفظية العربية**»، د.محمد حلمي هليّل، أسس المعجم النظرية، مجلة المعجمية، عدد١٢و١٣، تونس،١٩٩٧.
- **البحث اللغوي**، د. محمود فهمي حجازي، دار غريب، القاهرة، د.ت.
- **علم الدلالة**، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتاب، دمشق، ٢٠٠١م.